والتشوش والسذاجة (في خبرتهم بالالوان وليس في طريقة رسمهم) . ويعود ذلك الى الظروف الحياتية في المخيمات بعد حزيران ٦٧ ، وقبل ذلك احيانا ، غير ان السبب المباشر يعود الى ان اعدادا كبيرة من الاطفال كانت أصلا من سكان مخيم الكرامة ، ومناطق اخرى في الاغوار عشية الحرب الاخيرة ، وكنتيجة لتعرض المخيم ، والمنطقة عموما للقصف المستمر ، واحيانا نشوب معارك في شرق النهر حيث توجت بمعركة الكرامة (٢١ آذار ١٩٦٨) فقد انتقل السكان الى مخيم البقعة بصورة اساسية والى مخيمات أخرى . وقد ترتب على ذلك تأخر الدراسة عدة شهور ، مما اضطر اجهزة التعليم لتعديل برامج الدراسة ، بحيث تحول الحصص والدروس « غير الهامة » ، كالرياضة والتربية الفنية الى المواد الاخرى ، كالدين واللغات والعلوم . وفي مخيمات اخرى، ومخيم « سوف » بصورة خاصة ، فقد وجد ان البرنامج الدراسي في تلك الفترة ، لم يتضمن حصص الرسم والرياضة ، وذلك يعود الى تقسيم ساعات التدريس لفترتين ، صباحية ومسائية ، نظرا لقلة الخيام وعدم وجود مدرسين بقدر يغطي عدد التلاميذ . ولا مناص من الاشارة هنا، انه على الرغم من كون هذه الاجراءات التي عمدت الى الغاء حصص الرسوم والرياضة ، تبدو «عملية» و«واقعية»، غير انها تشير الى مدى الاجحاف الذي لحق بهؤلاء الاطفال من جراء الحرب ، اذ حرموا من أبسط حقوق الاطفال واكثر اهتماماتهم انسانية، فالطفل الفلسطيني في المخيمات قد سلبت منه ابسط خصوصيات الطفولة ، كاللعب والرياضة والعبث بالالوان ، من يتصور الطفولة بدون اللعب ؟ مع ذلك ، فان فترة التجربة ، كانت كافية بالنسبة لاطفال البقعة ، كي يتجاوزوا قسطا كبيرا من الفوضى والتشويش التي حكمت رسومهم في البداية .

٥. تسود بين المعلمات والمعلمين في مدارس المخيم، بصورة عامة ، حالات متردية من الجهل بأسس التربية الفنية ، وفيما عدا استثناءات نادرة ، فقد لوحظ ان المدرسين لا يستوعبون هذه «الخربشات»، وهذه « الاخطاء » في رسوم الاطفال . بالاضافة الى سريان روح الوصاية في غرض مضمون معين على رسوم الاطفال . وغني عن القول ان روح الوصاية التعسفية المنتشرة تعطي نتائجها السلبية بافقاد الاطفال تلقائيتهم وعفويتهم واستقلالهم في تخير الاشكال والموضوعات التي يرغبون التعبير عنها . وبالمقابل تظهر عادات سيئة مثل « التملق » لذوق الاستاذ ، وانعدام الصدق ، وزرع افكار «المحاكاة» و« النقل الحرفي » في التعبير الفني . لقد عكست الاساليب التربوية البائدة ، على التجربة في بدايتها ، نتائج سلبية تمثلت في طريقة الامثل وتقليد رسوم الكبار ، والاعتماد على رسوم مقننة يجري التقيد بها بحرفية تامة . وقد عبرت هذه الاساليب التربوية القديمة عن نفسها على السنة العديد من المعلمين الذين أظهروا نزوعهم للاستخفاف برسوم الاطفال فلم يروا فيها اية اهمية تعبيرية او جمالية(٢٣).

٦. ازاء الحالات السائدة بين الاطفال ، كانت مهمة المرحلة الاولى من التجربة تحرير الاطفال من الرواسب والاشكال والموضوعات التي بذرتها الاساليب التقليدية(٢٤)، والعمل على توليد حالات جديدة ، قوامها خلق نوع من « التداعي الحر » ، أي ترك الاطفال يرسمون ما يخطر ببالهم دون طرح افكار مسبقة او الايحاء بها . وبلا ريب كان لا بد ان تجني البدايات الاولى للتجربة آثار الاساليب والانماط التعبيرية والموضوعات التقليدية التي يجري تلقينها للاطفال . فظهرت العادات الفنية الرديئة ، كالتسطير قبل الرسم ، استخدام قلم الرصاص قبل التلوين ، عادات النقل والنسخ عن الصور والرسوم المدرسية ، تقليد نماذج رسوم مقننة في دفاتر مخصصة لذلك ، جرى التقيد بها حرفيا ، انعدام المخيلة ، وعدم القدرة على مباشرة مواضيع حياتية ملامسة لهم يوميا ، انفصام عن الارث الشعبي الزخرفي في الثياب والادوات المنزلية (اعمال القش ، الخرز ، التطريز ، الرسوم الشعبية المتوفرة في البيوت الفقيرة ... الخ) وقد اضطررنا الى اهمال اعداد كبيرة من هذه الرسوم التي جنت نتائج تربوية سيئة او انعدمت فيها الخبرة الاولية(٢٥) في بداية التجربة . الى ان اخذت تظهر الايجابيات شيئا فشيئا ، وتكشفت عن طاقات الاطفال الابداعية .

وبالاضافة الى الجو المتفتح ، الذي ساعد الاطفال على التحرر فنيا وجماليا ، فقد ساعد على التحرر نفسيا ، من التقاليد والانماط التي تصنف الرسوم الى « خاطئة » و« صحيحة »(٢٦). وقد دفع هذا التحرر النفسي والجمالي الاطفال الى مزيد من الجرأة في اقتحام الموضوعات والاشكال والخطوط